هوامش

كسب الرزق ليس أمراً سهلاً بالنسبة إلى كثيرات، وفي أحيان كثيرة يجدنَ أنفسهنّ مضطرات إلى العمل في مهن مضنية من أجل ذلك. صقل القصب من بين تلك المهن، وفيها تعمل نساء في تونس غضضنَ النظر عن متاعبها

مضنية مهنتها هذه (العربي الجديد)

صقل القصب
مورد رزق تونسيات في القيروان

تونس ـ **بسمة بركات**

ساعات طويلة تقضيها تونسيات من القيروان، وسط غربي البلاد، وهنّ يفرزنَ القصب ويصقلنَه بأيديهنّ الملأة بالجروح والمتعبة من جرّاء العمل اليومي الشاق بهدف تأمين لقمة العيش. فالقصب يمثّل مورد رزق عدد كبير من التونسيات في محافظة القيروان. ومن مجرّد أجذاع يابسة مهملة من بين مخلفات نباتية أخرى، توجّهت النساء نحو مهنة لا تشبه بقيّة المهن. وسط غياب فرص العمل في محافظتهنّ المنسيّة، وارتفاع نسب الفقر في معظم المعتمديات التي ما زالت تعاني التهميش، يجذبك مشهد النساء الجالسات على طول طريق القيروان واللواتي يصقلنَ القصب ويبعنَه للمارة. آسيا امرأة خمسينيّة من بين هؤلاء، تجلس وسط كومة من القصب بالقرب من الطريق وإلى جانبها أطفالها الذين كانوا يلهون مطلقين العنان لعفويّتهم ومتّخذين من الأعواد اليابسة المنتشرة في المكان سلوى لهم.

تخبر آسيا «العربي الجديد»: «نستيقظ باكراً ونعمل لساعات عدّة هنا، فننظّف العيدان من الأعشاب العالقة بها، ثمّ نقسمها لتكون متساوية ومتناسقة في الشكل والطول. من خلال تلك العيدان اليابسة نؤمّن رزقنا، وما من بديل لها، إذ لا تتوفّر لنا فرص أخرى للعمل». ومن تقصده آسيا بكلامها هنّ ربّات البيوت والأمهات اللواتي تتراوح أعمارهنّ بين الأربعينيات والخمسينيات، لافتة إلى أنّهنّ يجنينَ نحو 10 دنانير تونسية (نحو أربعة دولارات أميركية) في اليوم، وهو ما يكفي لمصروف يوم واحد فقط. وتوضح أنّ «منطقة القيروان معروفة ببيع القصب والراغبين في اقتنائه يزورونا من مختلف المحافظات من قبيل صفاقس وتونس العاصمة وبنزرت وسيدي بوزيد».

من جهتها، تشير أحلام، التي تعمل مع والدتها في تنظيف القصب على جانب الطريق، إلى أنّه «في الأيام الممطرة، يُسمح لنا بنقل الكميات التي نعمل عليها إلى بيوتنا، ثمّ يستلمها صاحب العمل منّا هناك»، مضيفة لـ«العربي الجديد» أنّ «أشقائي ووالدي يشاركوننا في تنظيف القصب، ليتحوّل ذلك إلى عمل جماعي للأسرة». وتؤكد أحلام، وهي في الثلاثينيات من عمرها، أنّه «لولا القصب لكانت ظروفنا أصعب. فهذه المهنة، على بساطتها، تشكل مورد رزق العائلة، ومنها نفقات الطعام والدراسة لأشقائي، ومن خلالها نسدد ديوننا لدى المتاجر».

في هذه المهنة، نجد الأم وبناتها، الحماة وزوجات أبنائها، الزوجة وزوجها. وثمّة من ينظّف القصب من الشوائب، وثمّة من يرصفه، وثمّة من يجمعه في أكوام متناسقة قبل عرضه على الطريق بهدف بيعه لعابري السبيل وأصحاب الضيع الزراعية وأصحاب المطاعم الراغبين في ديكور معيّن لمؤسساتهم. وتشير صابرة، وهي من النساء العاملات في هذا المجال، إلى أنّ «ثمّة أشخاصاً يقتنون القصب للاستفادة منه في الديكور، فينصبون بواسطته جدران فصل بين مساحة وأخرى. وعلى الشواطئ، ثمّة من يبني فيها أكواخاً صغيرة من القصب»، مؤكدة لـ«العربي الجديد» أنّ «استخدامات القصب متعددة وأسعاره في متناول الجميع. فهو يُعَدّ أقلّ كلفة من مواد أخرى، خصوصاً المعدنية منها». تضيف صابرة، وهي في الخمسينيات من عمرها، «بحثت كثيراً عن عمل في مصانع ومحلات، لكن من دون جدوى، الأمر الذي دفعني إلى العمل في تنظيف القصب. هي مهنة تبدو بسيطة، لكنّها تعتمد على اليدين للتنظيف وإزالة الشوائب، ما يتسبّب في آلام بسبب عيدان يابسة قد تؤذيهما. لكنّنا تعوّدنا على ما تخلّفه من جروح وألفنا حتى منظر الجروح في اليدين ولم نعد نكترث لها».

أمّا منى، فتخبر أنّها بدأت «بتنظيف القصب وبيعه على الطريق قبل سنوات عدّة، علماً أنّ أفراد عائلتي بمعظمهم يمتهنون العمل نفسه». والمرأة الثلاثينية اعتادت الجلوس في كوخ صغير من القصب «في انتظار من يشتري بعض العيدان» التي ترصفها بعناية وتعيد ترتيبها مرّات ومرّات علّها تلفت أنظار شراة. في سياق متصل، يقول عبد الحميد، الذي يشغّل نساءً في مجال القصب، إنّه «كان لا بدّ لأهالي الجهة من التأقلم مع الظروف الصعبة وخلق موارد للرزق، فكان بيع القصب الذي تُعرف به منطقة بالقيروان». ويؤكد لـ«العربي الجديد» أنّ «هذا القصب يمثّل فرصة لتشغيل نساء كثيرات»، مشيراً إلى أنّه يأتي «من الحقول والضيع الزراعية». يضيف عبد الحميد أنّه «في السابق، لم يكن هذا القصب يُستغَلّ وكان الناس يتخلّصون منه. أمّا اليوم فيُصار إلى الاستفادة منه، فيُنظّف ويُقطع ثمّ تتولى النساء صقله تمهيداً لبيعه». ويتابع أنّ «عابري السبيل والباحثين عن القصب يأتون خصيصاً إلى القيروان لشرائه من البائعات، وكذلك من الباعة الموزّعين على طول الطريق. وثمّة من يستخدمه سياجاً عازلاً أو في الضيع لحماية الأشجار وعلى الشواطئ وفي المطاعم للزينة».

باختصار

وسط غياب فرص العمل في القيروان وارتفاع نسب الفقر، يجذبك مشهد النساء الجالسات على الطريق واللواتي يصقلنَ القصب ويبعنَه للمارة

■■■

في هذه المهنة، نجد الأم وبناتها، الحماة وزوجات أبنائها، الزوجة وزوجها. ثمّة من ينظّف القصب وثمّة من يرصفه وثمّة من يجمعه في أكوام متناسقة

■■■

هي مهنة تبدو بسيطة لكنّ تنظيف القصب وإزالة الشوائب منه يتسبّبان في آلام بسبب عيدان يابسة قد تؤذي اليدَين

وأخيراً

عن الجمال والهوى

رشا عمران

أخذ مفهوم «الجمال» حيزاً واسعاً جداً من الفلسفة على مدى التاريخ، إلى درجة اعتباره من فروع الفلسفة، وطريقة للتعامل مع الفن والطبيعة. أما في العلم فيعرف الجمال بأنه الحكم الصادر عن الشعور تجاه الأشياء والأشخاص. وفي علم النقد هو «التفكير النقدي في الثقافة والفن والطبيعة». هذه التعاريف الواردة للجمال ليست سوى وعي العقل البشري في بحثه عن ماهية الذات وذات الآخر، الآخر الذي ليس شرطاً أن يكون كائناً بشرياً، بل هو كل ما يحيط بنا من تفاصيل الطبيعة والأشياء، حية أو جامدة، هل من جمادٍ يعادل جماد الحجر؟ ثمّة جمالٌ في بعض أنواع الحجارة بسبب الذهول. ثمّة جمالٌ في الخيال بما يمكن فعله بمجموعة من الحجارة العادية، وهو ما تفعله الهندسة المعمارية. ثمّة جمالٌ في الفراغ أيضاً، وفي الخيال الذي يُملِئ الفراغ. يلعب الخيال إذا دوراً كبيراً في إحساسنا بالجمال وبحثنا عنه؛ غير أن الخيال أيضاً ليس شيئاً مجرّداً، أقصد بالمعنى الشخصي الفرداني له، هو نتيجة تراكم معرفي يختلف من شخص إلى آخر، ومحصلة ثقافة واطلاع وانفتاح كبير، يقوم أساساً على وعي الاختلاف والنظر إلى المختلف، لا بوصفه شيئاً علينا تقبله، بل بوصفه كينونة لا تكتمل كينونتنا الشخصية بدونها. الكينونة الشخصية، بوصفها جزءاً من كينونة عامة، تحتاج هي أيضاً إلى كينونة مختلفة لتكتمل.

هل يمكن إذا أن نضع تعريفاً جديداً للجمال، هو الاختلاف؟ أو ربما الأصح أن نضع الاختلاف من شروط وعي الجمال، لا يمكننا اكتشاف الجمال من دونه. قد يسمّي بعضهم هذا الاختلاف «القبح»، إذ لتدرك الجمال عليك أن تدرك القبح، والعكس صحيح أيضاً، مثل كل الثنائيات في الحياة. بيد أن مفهوم القبح لا يقل تجريداً عن مفهوم الجمال، وهو ما أوجد، على ما أعتقد، مصطلح «جماليات القبح» والنظرية القائمة على هذا المفهوم في الفن والأدب؛ بيد أن وعي الاختلاف ورؤية الجمال في المختلف يحتاج أمرين: نفساً بشرية متخفّفة كلياً من نزعات الكراهية، بما تنتجه من عنصرية وشوفينية لا ترى في المختلف سوى القبح، ولا ترى الجمال سوى فيما يشبهها، أو حدس شخصي، تغذّيه معرفةٌ عميقةٌ وواسعة، قادر على تخطّي الشكل الخارجي للدخول إلى منابع الجمال الأصلية، وهي الجوهر في الأشياء والروح في الأشخاص. هذا التخطي أيضاً يمارسه الحدس العالي تجاه ما يقابله من أشكالٍ جميلة، ليكتشف أن الجوهر فاسد والروح قبيحة، بيدَ أن ذلك أيضاً يحتاج قدراً عالياً من الموضوعية والتجرّد من مشاعر كالحب والكراهية، فهما نوعان لا يمكن معهما رؤية جوهر الأشياء الحقيقي، ولا الروح الحقيقية، ستجملهما هذه المشاعر أو تضيف لهما القبح، حسب الهوى.

الهوى لا شيء مثله يمكنه أن يتلاعب بالقيم، ولا أن يفضح «شيزوفرينيا» أصحابه، ونحن كلنا بشكل ما من أصحابه. وليس الحديث هنا عن الهوى الشخصي فقط، على الرغم من أنه كان الأصل في تحديد مفاهيم الجمال والقبح، قبل أن تتوسع رؤية الفلاسفة لاحقاً، وإنما الهوى الإيديولوجي، الأكثر خطورةً في التلاعب بالقيم، كونه يشتغل على الغرائز، يتلاعب بها، ويوجّهها نحو ما يريد. ثمّة مثلاً من يرى الجمال في الكشف، والقبح في الستر، وثمّة من يرى العكس تماماً. الهوى الإيديولوجي هنا يعمّم الرؤية على أصحابه. لا يمكنك أن تقنع ليبرالياً متحرّراً برؤية الجمال في حجاب المرأة. لا يمكنك إقناع مؤمنٍ متعصب أن جمالاً يكمن في كشف الجسد. الاثنان لن يريا سوى القبح. الاثنان ليسا موضوعيين في رؤيتيهما، فكل ينطلق من رفض الاختلاف. سوف نرى هذا الاختلاف في موضوعٍ، كالمثلية الجنسية مثلاً. لن يرى رافضوها في أصحابها سوى القبح، ومؤيدوها سوف يرون الجمال في كل ما يتعلق بها، والقبح في رافضيها.

> الهوى لا شيء مثله يمكنه أن يتلاعب بالقيم، ولا أن يفضح «شيزوفرينيا» أصحابه، ونحن كلنا بشكل ما من أصحابه

أعطيت هنا مثالين بسيطين عن الهوى، لكنهما من أكثر المواضيع الراهنة حضوراً حول قبول الآخر ورؤية جماله، وهو في كل حال أمر مفهوم حالياً، غير أن الشيزوفرينيا، في العلاقة مع الجمال والقبح، تظهر بشكل أخطر، عندما نرفض أفكار شخصٍ ما، ونؤكد رفضنا لهذه الأفكار، بتناولنا ما هو عليه شكله الخارجي، بالتنمّر على شكله. أعطي مثلاً طازجاً: يرفض الإسلاميون كل ما قدّمته نوال السعداوي من أفكار ويعتبرونها مهرطقة وكافرة، وفي الوقت نفسه، يتنمر بعضهم على شكلها الذي يعتبرونه قبيحاً، ويتناولونه بالسخرية، شكلها الذي وهبه الله لها، الله الذي يعتقدون أنها تكفر به، هل من شيزوفرينيا ينتجها «الهوى» أكثر من هذه؟

سعر النسخة: مصر **جنيهان**، تونس **900 مليم**، لبنان **1000 ليرة**، قطر **3 ريالات**، السعودية **3 ريالات**، الكويت **200 فلس**، الإمارات **3 دراهم**، عمان **300 بيزة**، البحرين **300 فلس**، الأردن **400 فلس**، العراق **500 دينار**، المغرب **4 دراهم**، الجزائر **ديناران**، اليمن **50 ريالاً**، سورية **25 ليرة**، السودان **10 جنيهات**، ليبيا **200 درهم**، موريتانيا **35 أوقية** ◻ UK **£ 1,20**, Austria **€ 2,20**, Belgium **€ 2,20**, France **€ 2,20**, Germany **€ 2,30**, Holland **€ 2,30**, Italy **€ 2,10**, Spain **€ 2,20**, Switzerland **CHF 3,50**
Turkey **TL 5,00**, USA **$ 2,00**